سلسلة فرسان الإسلام

١٠

عمر المختار

بقلم

محمد ثابت توفيق

مكتبة العبيكان

ح مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مكتبة العبيكان (الرياض). لجنة التأليف والترجمة.

عمر المختار. ـ الرياض.

٥٢ ص؛ ١٧x٢٢سم (سلسلة فرسان الإسلام؛ ١٠)

ردمك: X-٩٦١-٢٠-٩٩٦٠

١ ـ عمر المختار، أ ـ العنوان

ديوي ٩٦١,٢٠٢ ٢٢/١٣٤١

ردمك: X-٩٦١-٢٠-٩٩٦٠ رقم الإيداع: ٢٢/١٣٤١

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م

حقوق الطبع والنشر محفوظة

الناشـــــر

مكتبة العبيكان

الرياض ـ العليا ـ طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص. ب: ٦٢٨٠٧ الرمز: ١١٥٩٥

هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤، فاكس: ٤٦٥٠١٢٩

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

الإسلام والجهاد المستمر

منذ أن خلق الله تعالى الإنسان، والشر والخير في صراع مستمر؛ ذلك لأنه مع نزول آدم عليه السلام إلى الأرض نزل معه إبليس اللعين، بعد أن عصى أمر ربه ولم يسجد لآدم.. تكبراً وعلواً. سأل إبليس ربه أن يؤخر في عمره إلى يوم القيامة، ولما أعلمه الله – جل جلاله – بأنه سيكون من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم، هنا زاد إبليس في كفره وزاد في إساءة أدبه أمام خالقه، معلناً أنه سيوقف عمره كلّه لإغواء آدم وذريته حتى يدخل أكبر عدد منهم الجحيم معه.. لم يعط الله لعدوه إبليس سلطاناً ولا سلطة على بني آدم، فعباد الله المخلصين لا يستطيع إبليس أن يؤثر في قلوبهم ولا أن يجرح إيمانهم مهما فعل.

وبهبوط آدم إلى الأرض بدأت المعركة الطويلة؛ ذلك لأنها غير محددة، بزمان، أو مكان، لأنها في كل مكان وزمان وجد فيه الإنسان إلى جوار أخيه الإنسان، حيث يتبعهما إبليس، ويحاول بكل ما أوتي من قوة أن يصرفهما، وأن يحولهما عن العمل الصالح إلى غيره، وذلك بأن يزين لهما اتباع الشهوات، ويحبب المعصية إلى قلبيهما، وليس هذا فقط، بل ويوقع الخلاف بينهما، فتقع الحروب والمكائد العظيمة.

موقعة جديدة:

كان قد مر أحد عشر عامًا على ميلاد القرن الجديد، القرن العشرين للميلاد، وبالتحديد في عام (١٩١١م)، وكانت الدولة العثمانية، التي تجمع المسلمين في ظل الخلافة في حالة ضعف، فتحركت دول الغرب لتدخل بلاد المسلمين، خاصة في المشرق، مصر، الجزائر، سوريا، لبنان، .. كانت دولاً مختلفة جمعها الطمع في خيرات هذه البلاد، والرغبة القديمة في السيطرة عليها.

ولكن هل تسكت قوى الخير وهي ترى هذه الهجمة العنيفة الشرسة؟

وهي التي عاشرت الإسلام، ورأت مقدار عدله في أرضها، وأحبت هذا الدين وتحدثت بلغته؟

الفصل الثاني

نشأة البطل

اليتيم:

وُلِدَ بطلنا في «البطنان» ببرقة في عام (١٨٦٢م)، من أسرة تحيا مثلما يحيا أغلب أهل برقة، غير أن أبويه كانا يمتازان بالصلاح، فوالده مختار بن عمر كان حريصًا على أداء فرائض ربّه، حتى إنه توفي أثناء سفره لأداء فريضة الحج، وكان حب الديار المقدسة قد ملك عليه قلبه، فترك ولديه محمداً وعمر وذهب ملبيًا نداء ربه بالحج إلى بيته الحرام، فلما أحس بدنو أجله اختار أحد رفاقه في الرحلة، وكان يثق به، فأوصاه بولديه خيراً.

اختيار إلهي:

اختار الله تعالى للصغير عمر المختار بن عمر أن ينشأ يتيمًا مثلما نشأ الرسول ﷺ، كي يتعود منذ صغره على الاعتماد على نفسه، وكذلك تفتحت نفس عمر الصغير على الحياة، فوجد اسمه على اسم أحد أعظم قادة المسلمين الخليفة عمر، ووجد أن أباه قد مات وهو يؤدي ركنًا من أركان الإسلام كل هذه المعاني طبعت بنفس عمر الذي كان يدرس بزاوية بزنزور، وتربى عليها وزادته ثقة بنفسه، وكانت العناية الإلهية تهيئه لأمر عظيم.

تدرج في الدراسة والحياة:

وكبر عمرُ، وكبر فهمُه على مجرد البقاء في بلدة بزنزور، وعلى التعاليم التي تعطى في زاويتها، وقد كان ذلك قبل أن تعرف برقة نظام التعليم في المدارس، وأصبح عمر في حاجة لأن يستزيد من فهم معاني القرآن الكريم، أصبح عمر متعطشًا إلى قصص أخرى من روائع السيرة النبوية؛ لذلك انتقل إلى زاوية أكبر هي زاوية «الجغبوب» حتى يتمكن من إتمام دراسته، وهناك بقي ثمانية أعوام لا يمل، ولا يظهر ميلاً إلى مزيد من اللعب واللهو اللذين يحبهما من هم في سنّه ومن المقبلين على مرحلة الشباب، بل كان مهتمًا بدروسه، عاملاً على الاستزادة منها، هذا مع صفاته الأخلاقية العالية من حسن تعامل مع معلميه، وإخلاص لهم مما جعل شيوخ السنوسية يحبونه، ويتمتع بصحبتهم، بعدما وثقوا به، وكانت المحطة التالية في حياته عندما اختاره محمد المهدي السنوسي أحد قادة السنوسية كي يتبعه عندما انتقل إلى الكفرة عام (١٨٩٥م).

ثقة:

كان سنُّ عمر المختار قد بلغ الثالثة والثلاثين حينها، ووثق فيه محمد المهدي حتى إنه اختاره بعد عامين من انتقالهما كي يكون شيخًا لزاوية القصور، وهي ثقة كان عمر يستحقها، إذ إنه قد وصل إلى مكانة علمية،

وإلمام بالقرآن الكريم، والسنة النبوية يؤهلانه لهذا، ولكن الأمر لم يكن يقتصر على ذلك، فالمهمة التي تولى عمر المختار القيام بها ليست مهمة تعليم للذاهبين إلى زاوية القصور فقط، بل إن الأمر يختلف عن ذلك تمامًا.

طبيعة خاصة:

زاوية القصور ليست كأي زاوية، فهي تقع بالجبل الأخضر، وهذه المنطقة يسكنها قبيلة من العبيد، وقد عُرِفوا بقوتهم، وعدم رغبتهم في طاعة أحد مهما كان.

ولم يكن الأمر يقتضي أن يقوم بهذه المهمة الخطيرة رجل شديد يستطيع أن يتحكم فيهم، ويُذهب عنهم طاقتهم للعصيان الذي ألفوه، وأيضًا لم يكن يلزم لها رجل لين يستطيع أن يهدئ الأمور، فربما طمع هؤلاء فيه، بل إن الأمر كان يتطلب وجود شيخ يمتلك القدرتين في وقت واحد، يستطيع أن يتحكم فيهم، ويظهر العنف ولكن متى؟ حينما تستوجب الأمور منه أن يتصرف بعنف بحيث لا يصلح معها إلا العنف، ثم بعد ذلك يستطيع العودة إلى أسلوبه اللين الحكيم الذي يحببهم فيه، ويجمعهم حوله.

نجاح وتوفيق:

وكان عمر المختار عند حسن ظن محمد المهدي، وقد حقق نجاحًا في

المهمة التي أُسندت إليه، وذلك بحزمه، وحسن تعامله مع المواقف، وهذا جعل الرجل يصحبه معه في مهمة أخرى أشد خطورة.

إيمان وجهاد:

كانت قوات الفرنسيين قد استسهلت الهجوم على الجزء الغربي من السودان، ولما كان السنوسيون يتحكمون في الجزء الجنوبي وحول بلدة اسمها (ودادي) فلقد هبوا يدافعون عن أنفسهم،ويصدون هذا الهجوم، محاولين منع الفرنسيين من غزو المنطقة، وقد أظهر عمر قدرة على القتال، وثباتًا في الميدان جعلت قادته يزيدون ويعمقون ثقتهم به، بل يعينونه شيخًا لزاوية جديدة لكن في السودان، وهي زاوية (عين كللك) وهكذا بقي في السودان فترة طويلة، فبعد أن كان قد جاءه مقاتلاً مدافعًا عن حمى المسلمين، لم تنته مهمته عند ذلك، بل بقي أيضًا يعد جبهة داخلية لمقاومة الاستعمار، فهو يعلِّم أبناء المسلمين، وينشر الإسلام في مناطق بعيدة، وهو يقوم بهذه المهمة العظيمة عن طيب نفس؛ لذلك كانت تؤتي ثمارها معه.

استدعاء عاجل:

ولكن السيد المهدي توفي عام (١٩٠٢م)، ولذلك استُدعِي عمر المختار إلى برقة، وطلب إليه أن يتصرف في زاوية القصور، فقد احتارت السلطات

العثمانية التي كانت تحكم العالم الإسلامي في ذلك الوقت في حكم هؤلاء العبيد .

وفي عام (١٩٠٣م) عاد عمر المختار إلى زاوية القصور شيخًا حاكمًا، فبذل كل ما استطاع من جهد في حكم القبيلة، وتنظيم، وترتيب أمورها، حتى انتهى في وقت قليل إلى السيطرة عليهم، وقد كانت هذه قدرة نادرة أنعم الله بها عليه، فهو يملك روحًا عالية تؤثر في كل الذين رأوها أو تعاملوا معها، وكانت تلك الروح ملازمة له طوال حياته .

شكر خاص:

ووصلت الأخبار إلى الحكومة العثمانية تفيد بأن الأمور في زاوية القصور قد أصبحت هادئة، فسعدت بذلك حتى إنها أرسلت شكرًا خاصًا له، وهم يرونه يحسن قيادة الزاوية التي لم يكونوا يعرفون كيف يتصرفون معها .

الفصل الثالث

ضد قوى الشر

جهاد عمر المختار:

أدرك عمر المختار أن قوى الشر تريد السيطرة على بلاده وإطفاء نور الله، فهبَّ مسرعًا يقاوم تلك القوى الشريرة؛ لذلك ذهب إلى الجزء الغربي من السودان لمقاومة الفرنسيين الذين كانوا من ضمن تلك القوى التي كانت تستخدم الخبث والمكر والدهاء في محاولاتها الانتشار في جميع الدول التي كانت تراها ضعيفة، كان عمر المختار يدرك ذلك جيداً، وقد ساعد على نمو هذا الإدراك في نفسه النعم والمواهب الكثيرة التي أنعم الله بها عليه، وأيضًا وجوده بمقربة من السنوسيين.

وبدأت قوى الاستعمار توجه جهودها نحو الجزء الغربي من أفريقيا، وقاومهم السنوسيون، ولكن الجهاد الحقيقي ضد الفرنسيين المستعمرين كان في التبستي، وخسر الفرنسيون من قواتهم الكثير، ولكنهم صمموا على الصمود والتحمل، فلقد كانوا يملكون أسلحة حديثة، مع قوات غزيرة، زيادة على أنهم لم يكونوا الوحيدين الذين قرروا الدخول في معارك ضد الشعوب الإسلامية.

تاريخ مؤلم:

في (٢٠) من سبتمبر عام (١٩١١) تحركت قطع الأسطول الإيطالية حتى وقفت في مواجهة طرابلس عاصمة ليبيا، ووقفت في ذلك اليوم الذي وافق السبت، ليبدأ تاريخ مؤلم من تواريخ ظلم الإنسان لأخيه الإنسان أو عدم مراعاة آدميته، بل استغلال قوته في الإضرار به، لقد تحركت بوارج إيطاليا، مثلما كان الفرنسيون، والإنجليز قد حركوا قواتهم من قبل للاستمتاع بخيرات الشعوب مستغلين في ذلك ضعف الدولة العثمانية.

البداية:

كانت بداية المعارك بين الليبيين العزَّل الذين لا يملكون من السلاح إلا القليل مع الإيطاليين الذين جاؤوا بأسلحتهم واستعدوا للحرب، وظن الإيطاليون أن الليبيين سوف يرون قوتهم فيستسلمون لهم، ولذلك ظلوا منتظرين منذ (٢٠) من سبتمبر وحتى (٣) من أكتوبر (١٩١١م)، على أمل أن تستسلم طرابلس لهم، ولكن أهلها رفضوا التسليم وفضلوا الشهادة في سبيل الله، وبالفعل أخذت تلك السفن العملاقة تضرب القلاع المسلمة، كان المسلمون يعلمون أن هذه القلاع لن تحتمل تلك الضربات ولكنهم فضلوا المقاومة على الاستسلام، وبالفعل دخل الإيطاليون طرابلس بعد قليل.

استمرار المعارك:

لم يكن أهل ليبيا على استعداد للمعارك الشديدة التي دخلوا فيها مع الطليان؛ ولذلك تحركت السفن الإيطالية بسهولة ويسر متنقلة بين المدن والسواحل الليبية فوصلتْ إلى مدينة «بني غازي» بعد أحد عشر يومًا من دخولها طرابلس، مستخدمة أبشع أدوات القتال التي كانت معروفة في ذلك الوقت «القنابل».

وطلب القائد الإيطالي من الحامية أن تسلم بني غازي له، ومع أن الحامية المسلمة كانت قليلة العدد مقارنة إلى عدد الجنود الإيطاليين الغازين، وليس معها من السلاح مثل الذي معهم، إلا أن ذلك لم يمنعها من المقاومة الشديدة التي استفزت القائد الإيطالي، فما كان منه إلا أن بدأ الحرب من جديد مع حامية أخرى من قوات الدفاع الليبية.

ورغم إمكانات الحامية المتواضعة إلا أنّ إحساسهم بأنهم إنما يدافعون عن بلدهم كله ضد عدو يريد الاستيلاء عليه، وأنّ دفاعهم هذا واجب يمليه عليهم دينهم، هذا الشعور جعلهم يستبسلون في القتال، والدفاع عن المدينة.

وجاءت نتيجة هذه المقاومة مذهلة، فلقد استطاع أفراد الحامية،

المكلفون بالدفاع عن بني غازي، أن يهزموا القوات الإيطالية عند مكان يسمى «الصابري».

اشتباك العثمانيين مع الإيطاليين:

استعدت القوات العثمانية للدخول في معركة ضد القوات الإيطالية، ولم يمض وقت طويل حتى ازدادت حدة المعركة، وأدرك الإيطاليون أن العثمانيين إذا ما حققوا نصرًا جديدًا عليهم مع هزيمتهم السابقة في «الصابري»، فإن الخطة التي أعدوها وتحركوا بناء عليها كل ذلك سوف ينهار، زيادة على أن مظهرهم أمام الدول الاستعمارية المماثلة التي خرجت هي الأخرى للهجوم على دول إسلامية لن يكون مشرفًا.

ولأن الإيطاليين كانوا قد جربوا الاشتباك مع الحامية الليبية في الصابري وهزموا منها؛ فإنهم وهم الأكثر عددًا والأشد قوة المزودون بالسلاح المتقدم خافوا من الدخول في معركة أخرى يخسرونها فتضعف من تواجدهم، ولذلك فقد أمر قائدهم السفن العملاقة الحربية بأن تضرب البلدة الآمنة بني غازي، من موقعها في البحر، وهكذا ظلت تلك السفن تضرب حصون البلدة والحامية، وما تصل إليه نيرانها دون أن تدخل في نزاع مباشر أو تقرب من الجنود.

وأمام هذه الضربات الشديدة المتلاحقة لم يملك العثمانيون إلا أن ينسحبوا من مكان المعركة إلى مكان آخر، منتظرين تجدد القتال، وبذلك استطاع القائد الإيطالي الاستيلاء على بني غازي.

وبمثل هذه الطريقة استطاع الإيطاليون الاستيلاء على بقية الموانئ الليبية لعدم وجود قوة بحرية تساعد أهلها على المقاومة، ولكن هل يستسلمون لهذه النتيجة؟

مفاجأة:

كانت الخلافة العثمانية ضعيفة، قد دبت فيها عوامل كثيرة جعلتها تعاني من أمراض كثيرة، فهي كخلافة تسيطر على دول كثيرة قد شاخت، وتقدم بها العمر، وهكذا هو حال الدنيا، فمن يبدأ قويًا لا يستطيع الاستمرار بقوته هذه حتى نهاية عمره، وكذلك كانت الدولة العثمانية تمامًا مثل الإنسان، ولذلك أعلنت استسلامها في ليبيا، غير أن قيام المجاهدين بتحدي الطليان، بل الدخول في معارك معهم، والفوز عليهم أحيانًا وأخذهم الغنائم، فقد حصل الليبيون المجاهدون على غنائم وفيرة من الإيطاليين.

وكانت البداية عندما تحركت قوة من الفدائيين الذين باعوا أرواحهم في سبيل الله، ففاجأت كتيبة – جماعة كبيرة من الجنود الإيطاليين كانوا

يعسكرون في مكان اسمه المنشية، فلم يستطع الإيطاليون – على كثرة عددهم، وقوة سلاحهم – المقاومة، فقتلهم المجاهدون، ولم يبقوا منهم أحداً، ووصل الخبر إلى بقية الإيطاليين فكادوا يجنون، وعلى الفور أرسلوا قوات كبيرة انتقمت من المجاهدين، وليتها اقتصرت في انتقامها على الذين فاجؤوا الكتيبة الإيطالية، بل إنهم أخذوا ينتقمون في حقد، دون أن يميزوا بين شيخ كبير وطفل صغير، وامرأة لا تستطيع أن تحارب، ولم ترفع في وجههم سلاحًا، لقد ارتكبوا أشياء فظيعة يخجل منها الإنسان.

هذه الأفعال أتت بغير ما يفكر فيه الإيطاليون، وكأن الله أراد الانتقام منهم بأيديهم، لقد اشتد القتال في ليبيا كلها، واستعد المجاهدون في كل بلد فيها، خاصة بعدما علموا أن الإيطاليين لم تأخذهم رحمة، حتى إنهم فتحوا بطون النساء الحوامل مبالغة في الانتقام من مجاهدين كانوا يدافعون عن أرضهم.

اشتداد القتال:

أعلن الإيطاليون الحرب على الجميع النساء والأطفال والشيوخ الكبار قبل المجاهدين الذين كانوا يخافون منهم أشد الخوف؛ ذلك لأنهم كانوا يقاتلون من أجل مبدأ عظيم أمرهم ربهم به هو الجهاد في سبيل الله، لقد

كان المجاهدون الليبيون يعلمون أنه لولا هذا المبدأ العظيم لما كان هناك إسلام في بلادهم، ولظلوا في ظلام حكم الرومان القديم، هذا الحكم الذي كان يأخذ خيرات بلدهم، بل يسخرهم في أعمال شاقة ولا يعطيهم حقوقهم، بل يلقي إليهم بأقل القليل من المال، وفي الوقت نفسه يأخذ الرومان منهم الضرائب الكثيرة، هذا زيادة على عدم مراعاتهم للأمن والأمان، وعدم شعورهم بالطمأنينة في بلادهم، هذه الراحة لم يعرفوها إلا بعدما دخل المسلمون بلادهم، وهم الآن يهبون للجهاد من أجل الحفاظ على هذا الأمن والأمان.

اشتداد المقاومة:

وعلى الرغم من شدة وهمجية الإيطاليين فإن المجاهدين لم يستسلموا بل راحوا يبذلون كل ما لديهم من جهد مستعينين بربهم، فوقفوا أمام الغزاة وقفة صامدة، بل وأجبروهم على البقاء في أماكن محددة تلك التي يحميها أسطولهم، فيستعينون به حينما لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، تمامًا مثلما حدث في بني غازي، أما الدخول في أعماق البلاد فهذا ما لم يستطع الإيطاليون فعله.. خوفًا من مقاومة المسلمين الأبطال الذين يدافعون عن إسلامهم وبلادهم.

الفصل الرابع
تسليم واستثارة

مفاوضات الصلح:

ولأن العثمانيين كانوا في مرحلة ضعف شديدة؛ لذا لم يتحملوا استمرار الحرب الطويلة مع الإيطاليين، فدخلوا في جلسات معهم بغرض الوصول إلى صلح ينهي الحرب بينهما، وبالفعل حدث في (١٨) من أكتوبر (١٩١٢م) أن توصل الطرفان إلى صيغة للصلح أرضتهما معًا، فلقد أرضت هذه الصيغة الإيطاليين، وخيل إليهم أنها أرضت العثمانيين الذين سحبوا جنودهم بالفعل من ليبيا.

منشور من ملك إيطاليا:

وخيل إلى ملك إيطاليا أن المعركة قد قاربت على الانتهاء، وأن الأمور بعد ذلك سوف تستقر؛ ولذلك أرسل منشوراً إلى أهل برقة وطرابلس يقول فيه:

«إنه عملاً بالقانون رقم (٣٨) الصادر في (٢٥) من نوفمبر عام (١٩١٢م)، والذي يجعل طرابلس الغرب وبرقة خاضعتين خضوعًا تامًّا للسيادة الملكية الإيطالية، ورغبة في التعجيل بإعادة السلم إلى هاتين المقاطعتين يُمنح عفو شامل للطرابلسيين والبرقاويين الذين اشتركوا في الحرب».

كان ملك إيطاليا يظن أن باستطاعته تهدئة الأمور في برقة وطرابلس اللتين استطاعت قواته السيطرة عليهما ولذلك أصدر القانون (٣٨) هو يظن أن أهالي المدينتين ينتظرون منه هذا العفو، وهم سوف يقبلونه بعد الفظائع التي ارتكبتها قواته.

استثارة:

وأراد العثمانيون استثارة مشاعر المسلمين وتحميسهم أكثر لمواجهة العدو الذي اضطرتهم الظروف وحالة الضعف التي هم فيها إلى عقد معاهدة صلح معه، فأرسلوا نائبًا عن السلطان يحمل رسالة هي في ظاهرها دعوة إلى الاستسلام كي يفرح الإيطاليون بها، ويظنون أن السلطان ملتزم بالمعاهدة التي أجروها معه، أما الذي لم يعلمه الإيطاليون ولم يخطر لهم على بال، فهو أن هذه الدعوة عبارة عن استنفار لهمم المجاهدين، وزيادة في تحميسهم لقتال عدوهم.

أعلن نائب السلطان وكان اسمه شمس الدين باشا ميله إلى إيطاليا أمام الإيطاليين بالطبع كي يشعرهم بالراحة - ثم أخذ يحمس المجاهدين عندما راح يدعوهم إلى التسليم، وعدم المقاومة، فيزيدهم رغبة في قتال عدوهم مهما كانت النتائج.

وبالفعل انقسم الليبيون المجاهدون نصفين: نصف يرى ضرورة محاربة الإيطاليين حتى النهاية مهما تكن النتائج، والنصف الآخر يرى ضرورة مسالمتهم حسب الأمان الذي أعطاه لهم الخليفة العثماني.

قرار المجاهدين:

أما قرار المخلصين من أبناء ليبيا فقد كان واضحًا وهو الحرب ضد العدو بمختلف الطرق حتى النهاية، فإما الشهادة وإما تحرير الأرض، وكيف لا؟ وهم الذين تعودوا مواجهة الإيطاليين خارج برقة وطرابلس والتصدي لهم، وهزيمتهم، بل أخذ الغنائم منهم.

وفي البداية استقل كل قطر بإدارة حركة جهاده بما يناسب ظروفه، ولم يمض وقت طويل حتى عقد زعماء المجاهدين اجتماعًا وقرروا إنشاء دولة مستقلة لهم، بعيداً عن سيطرة الإيطاليين وذلك في طرابلس الغرب، وأبلغوا قرارهم إلى نائب السلطان.

دعوة للجهاد:

دعا زعماء السنوسيين في بني غازي وغيرها شيوخ الزوايا للجهاد، فقد وقعت عليهم مهمة الدفاع، كل واحد فيهم في الزاوية التي يقيم بها، وتحمل هؤلاء الشيوخ العبء الثقيل وكان في مقدمتهم عمر المختار الذي

كان يزور أحمد الشريف زعيم السنوسيين في بلدة اسمها الكفرة، وعند عودته سمع بنزول الإيطاليين في بنغازي، فما إن وصل إلى «القصور» وهي تلك الزاوية التي كان يحكمها ويعلّم أهلها حتى دعاهم جميعًا إلى الاستعداد للحرب الشاملة ضد العدو، وكان عمر المختار بذلك أول داع للجهاد في «القصور» ثم تبعه بعد ذلك شيوخ الزوايا كلهم.

وأظهر عمر المختار شجاعة تناسب تاريخه في مقاومة المستعمرين الفرنسيين من قبل، والسيطرة على قبيلتة في الظروف التي لم يستطع العثمانيون السيطرة عليهم فيها، نعم.. كانت هذه القبيلة متمردة لا تخضع لسلطان أحد، ولكن الشيخ عمر المختار علمهم الإسلام وغرس فيهم الإخلاص لدين الله، فكان أن ساروا وراءه حينما دعاهم إلى مقاتلة الإيطاليين، ولم يتعللوا -كما فعل بعضهم - بأنهم قليلون، وأن الإيطاليين كثيرون، بل بدؤوا معه الكفاح واثقين من - بحول الله وقوته - النصر، وكيف لا يثقون وهم مؤمنون يعلمون أن الله ناصر جنده.. وكيف لا يثقون وقائدهم الشيخ العظيم المؤمن البطل عمر المختار.

استمرار الجهاد:

واستمر جهاد أهل ليبيا ضد الإيطاليين، واستبسالهم في القتال، وشاء

الله أن تقع أحداث الحرب العالمية الأولى التي ما إن بدأت حتى قررت الحكومة العثمانية مساعدة السنوسيين في ليبيا، لقد أرادت الدولة العثمانية أن تجعل من ليبيا ميدانًا للقتال ضد الدول الغربية المتحالفة.

ووصل رسول السلطان «أنور باشا» ليبيا، وقبل أن يغادرها زار أحمد شريف الدين قائد المجاهدين في بلدة تُسمى بـ «الجغبوب»، وهناك أبلغه أوامر السلطان العثماني، فقال له:

«إنّ رغبات السلطان هي: إسناد أمر الأمة الليبية إليه، وإن الخليفة قد منح الأمة الطرابلسية استقلالها تاركًا لها الحق في أن تقرر مصيرها، وتدافع عن نفسها».

كانت هذه الكلمات أكبر دافع لأحمد شريف المجاهد كي يمضي في طريق الجهاد شاعراً أنه المسؤول أمام الله ثم أمام الناس عن المجاهدين وعن الكفاح ضد الغزاة الطغاة، هو والرجال العظام الذين جاؤوا من بعده.

لم يكن عمر المختار بعيداً عن الأحداث، فهو في ساحة القتال يقود الزاوية إلى الجهاد، ثم إنه وقد بلغ الخمسين لم يقصر في حق دينه وربه بل هو مثل الأسد الجسور ينتقل من مكان إلى مكان في خفة وقوة، وهكذا فحينما قرر المجاهد أحمد الشريف تسليم القيادة العامة في برقة إلى عزيز

المصري بك، فذهب إليه عزيز ليشكره، ذهب معه عمر المختار، يساعده ويعلن استمراره على العهد بالجهاد والمقاومة.

وفي ميدان القتال أظهر عمر المختار شجاعة نادرة، ومقدرة عظيمة على القتال أوقعت الرعب في قلوب أعدائه.

أحداث مؤسفة:

كان أحمد الشريف هو المشرف على القتال بينما كان عزيز المصري هو قائد العمليات العسكرية في برقة، وكان يقوم بها على الوجه صحيح، ولكن إيطاليا قررت احتلال «الجبل الأخضر» وبذلك دخلت مع المجاهدين في معارك متعددة.

ولكنها في (١٦) من مايو (١٩١٣م) نجحت في الوصول إليه، وهناك دخلت مع المجاهدين في معارك متعددة كان آخرها معركة يوم الجمعة حيث اشترك أحمد الشريف مع القبائل وبمساعدة الضباط العثمانيين حيث كان القرار العثماني بإعادة مساعدة مجاهدي ليبيا، ونتيجة هذا التعاون لم يستطع الإيطاليون الصمود، بل تراجعوا إلى «درنة» وازدادت الروح المعنوية للمجاهدين، وأصبحوا أكثر تصميمًا على استمرار القتال راغبين في الوصول إلى النصر، وطرد المعتدين عن أرضهم.

ولكن إيطاليا تنبهت إلى ضعف موقفها إذا ما اتحد المجاهدون مع بعضهم فراحت تضغط على العثمانيين من جديد كي ينهوا تعاونهم مع المجاهدين، وكذلك راحت تحاول منع الدول المجاورة التي تساعدهم ومنها الحكومة المصرية؛ وكان الإنجليز المستعمرون هم الذين يتحكمون في حكومة مصر، لذلك نجح الإيطاليون في إيقاف مساعدتهم لمجاهدي ليبيا، بل توسط بعض المصريين لدى المجاهد أحمد الشريف لوقف الجهاد، ولكن أحمد الشريف أصر على مواصلة الكفاح حتى يخرج الإيطاليون من ليبيا.

مؤامرة جديدة:

ولم ييأس الإيطاليون بل راحوا يضغطون على العثمانيين حتى أمروا القائد العام عزيز المصري بالعودة إلى تركيا، وهو الذي يأخذ أوامره من الأتراك، ويحارب مع المجاهدين بناء على أوامرهم، وها هو الآن يتلقى أمراً بالعودة، وهو يستعد لتنفيذ هذا الأمر.

هنا قرر المجاهدون أمراً، لقد أرادوا أن يأخذوا الأسلحة التي معه، فهم يرونها حقًّا لهم، ولكن عزيزاً المصري رفض ذلك، معتمداً على الصلح الذي تم بين تركيا وبين الإيطاليين، ولكن المجاهدين لم يقتنعوا بوجهة نظره، وقرر السيد أحمد الشريف إرسال عمر المختار لأخذ الأسلحة منه ولو بالقوة.

ولأن عمر المختار قد وهب حياته لمحاربة عدوه، وهو الآن لا يملك إلا أن ينفذ الأوامر، فلقد كفاه الله شر هذا الاختيار، إذ إنه وقبل أن يصل إلى المكان المحدد كان عزيز المصري قد استطاع الهرب بعد معركة حامية بينه وبين المجاهدين.

الخطر يحيط بالبلاد:

وانتهت المؤامرة التي دبرت لها إيطاليا ونجحت بمقتضاها في إيقاع الخلاف بين العثمانيين وبين المجاهدين، انتهت المؤامرة ولكنها تركت خطراً جديداً أقوى من كل الأخطار التي تعرض المجاهدون لها، إذ إن تاريخ كفاحهم الذي يكاد يصل إلى عامين، والأرواح التي قدموها، والجهد الذي بذلوه يكاد يضيع، فبعد انسحاب عزيز المصري أصبحت البلاد شبه خالية من وسائل الدفاع، وبذلك يستطيع العدو إذا ما هاجمها أن يتقدم ويحصل على ما يريد، ورغم هذه الظروف فقد صمد المجاهدون أمام الإيطاليين ولكن أصبح واجبًا عليهم دون تردد أن يختاروا القائد الشجاع، الحسن القيادة، السريع في اتخاذ القرار الصحيح الذي يقود حركة الجهاد الشامل، الذي لا يتردد ولا ينسحب من ميدان المعركة مثل غيره، ولم يطل الوقت بالمجاهدين، إذ إنه كان حاضراً واضحًا أمام أعينهم، وليس غيره يقود المعركة.

الفصل الخامس
مرحلة جديدة من الكفاح

أطماع:

منذ قديم الزمان والاستعمار لا همَّ له ولا غاية سوى نهب ما يستطيع من خيرات البلدان، اختلفت قوى الشر في السنوات العشر الأولى من بداية القرن العشرين، وبالتحديد عام (١٩١٥م)، حينما أصبح لألمانيا شأن خطير، فاتحدت دول كثيرة ضدها مُشكِّلة تحالفًا يواجهها، وكان من تلك الدول التي تحالفت ضد ألمانيا إيطاليا، فأسرعت الدولة العثمانية تأخذ موقفًا ضد التحالف مع ألمانيا، وهنا عادت الدولة العثمانية إلى الحرب مع إيطاليا من جديد بعدما كانا قد اتفقا على الصلح، ولما كانت إنجلترا تقف ضمن القوى التي تحارب ألمانيا فلقد وجدها العثمانيون فرصة لمحاربة الإنجليز في مصر، وهكذا دخل أحمد الشريف المشرف على المقاومة في برقة وطرابلس طرفًا في الحرب العالمية الأولى حينما ساعد الألمان والعثمانيين ضد الإنجليز في مصر.

الفشل:

ولم يستطيع الليبيون تحت زعامة أحمد الشريف الوقوف كثيراً ضد

الإنجليز؛ لذلك تنازل أحمد الشريف لـ«إدريس السنوسي» كي يعيد ترتيب الأمور؛ حيث كانت أوضاع البلاد الداخلية شديدة الصعوبة حتى إن مدينة برقة قد عانت كثيراً من المجاعة التي انتشرت بها عام (١٩١٥م)، فكان لابد من حل وإن كان صعباً على المجاهدين قبوله، إلا أنه يحقق لهم بعض الراحة حتى يستطيعوا مواجهة عدوهم مرة أخرى، وقد تحسنت ظروفهم. ألا وهو الصلح مع الإنجليز...

الصلح:

ولقبول الإنجليز الصلح اشترطوا اتفاق الليبين مع الطليان قبل التفاهم معهم، ولظروف البلاد الشديدة القسوة قبل الليبيون هذا الشرط، وليأخذوا فترة من الراحة، يعيدون فيها استعداداتهم بدلاً من الدخول في معارك متعاقبة ليسوا على استعداد لها، وهكذا حدث اتفاق مبدئي بين السنوسيين والطليان، وبينهم وبين الإنجليز، وسمي باتفاق الزوينية.

أراد الزعماء الليبيون من هذا الاتفاق أخذ هدنة وتحسين الظروف المادية للأهالي، وبخاصة أن أهل ليبيا لا يقفون ضد عدو عادي، بل ضد الإيطاليين الذين يملكون السلاح والرجال، وزيادة على ذلك فهم يستخدمون أساليب المكر والدهاء لتحقيق أغراضهم.

حرص محمد إدريس على عقد اتفاقية مع الطليان ليستفيد من وقف العمليات العسكرية بينه وبينهم في إعادة ترتيب أموره وأوضاعه وزيادة النشاط في تعليم الناس أصول الإسلام، فإذا ما تم له ذلك، وصار الناس أكثر استمساكًا بدين الله كان ذلك مانعًا لانتشار الخائنين بين المجاهدين.

مكر وخداع:

اضطرت ظروف الحرب العثمانيين إلى ترك طرابلس قرب نهاية الحرب العالمية الأولى، فاتفق قادتها على إعلان استقلالها عن ليبيا؛ نظرًا لأن الإيطاليين كانوا يتحكمون فيها، وبناء عليه فقد رأوا أن ينشئوا جمهورية مستقلة لها، واقترحوا أن يقوم بحكمها مجموعة من الزعماء يختارونهم بعناية شديدة، واتخذوا من غريات عاصمة لها، فلما علم الإيطاليون بذلك حاولوا أن يرجعوا أهل طرابلس عن قرارهم بالتهديد وبالتخويف، ولما لم ينجحوا أعلنوا الحرب عليهم، ودار القتال من جديد، فدافع أهل طرابلس عن حريتهم دفاعًا شديدًا، وأحس الإيطاليون أنهم موزعون بين قتال أهل طرابلس، ومحاولة التحكم في برقة وغيرها من بلدان ليبيا، وأيضًا متابعة التغييرات العالمية الكثيرة، ثم إن أهل طرابلس ماضون في دفاعهم عن مدينتهم لا يفكرون في الاستسلام، ولا يتهاونون في القتال؛ لذلك أراد الإيطاليون إرضاءهم، واتباع أسلوبهم المفضل، وهو أنهم حينما يفشلون في

الوصول إلى ما يريدون عن طريق الحرب والطلب المباشر فإن عليهم أن يراوغوا ويدوروا في سبيل الوصول إليه بأي طريقة ولو كانت غير شريفة . .

وبالفعل أعلن الإيطاليون موافقتهم على إعطاء أهل طرابلس استقلالاً داخليًّا، بل ووقعوا دستوراً مع الحكومة التي اختارها أهل البلد إلا أنهم اشترطوا أن يعينوا هم الحاكم العام لطرابلس، ولم يكن شرطهم هذا إلا محاولة جديدة لنشر الفتنة بين صفوف المجاهدين من أهل طرابلس، كما أنهم استغلوا جو الهدنة معهم كي يدبروا المؤامرات، ويفتعلوا المواقف والفتن، ويخلقوا العداوات ويفتعلوها للقضاء على الروح الوطنية، ومنع كفاح الليبيين.

تصرف حكيم:

أحس أهل طرابلس بما يعده عدوهم لهم، وبحجم الخطر الذي يحيط بهم، فدعوا إلى لقاء عام في غريان، وهناك قرروا أن يقابلوا الإيطاليين وجهاً لوجه ليس في ميدان المعركة هذه المرة ولا عن طريق الرد على أفعالهم بنفس الطريقة، فهم لن يبادلوهم سوء تصرف بسوء تصرف، ولن يتبعوا الأسلوب الملتوي مثلهم، بل إنهم سوف يتعاملون معهم بطريقة أخرى، لقد قرر زعماء طرابلس إرسال مجموعة منهم إلى عاصمة إيطاليا إلى روما لمواجهة

رجال الحكم هناك وليبينوا لهم أفعال الإيطاليين الملتوية، ومحاولاتهم الدائمة الوقيعة بين أهل البلد الواحد، أهل طرابلس.

لقد كان أهل طرابلس وحكامها يعلمون أن هذه الطريقة قد لا تأتي بالنتائج المرجوة منها، فقد لا يستطيع الوفد الذي سيرسلونه إلى روما إحراز نجاح فيما يريده من وقف هذه الفتن، ولكنهم أرادوا فقط أن يحرجوا قيادات الإيطاليين، وأن يفهموهم أنهم قادرون على فهم طريقة تفكيرهم.

الجانب الآخر من الكفاح:

أما على الجانب الآخر من الكفاح وهو الجانب الذي رأى فيه أهل طرابلس الفائدة وأحسوا بأنه سوف يحقق لهم النتائج التي يرجون الوصول إليها فقد أرسلوا جماعة منهم إلى إدريس السنوسي يخبرونه بأنهم ما زالوا على العهد القديم، وأن محاولتهم الاستقلال بإدارة طرابلس لا يعني على أي حال وقوفهم بمفردهم أو تخليهم عن المجاهدين من إخوانهم في مختلف أنحاء ليبيا، ونظراً لقرب برقة منهم فلقد طلبوا منه أن يوحد حركة الجهاد في البلدين.

الاتحاد في مواجهة العدو:

ولأن أهل طرابلس وبرقة كانوا على مستوى المسؤولية التي قضى الله تعالى أن يكونوا فيها، فقد اتفق الوفدان على وضع اتفاق جديد، تعهدا

خلاله على احترامه، وعدم مخالفته مهما اشتدت الظروف بهما، وأن يتعاونا بناء عليه في زحزحة المستعمر من أرضهم، وبناء عليه فلسوف يتحملان المواقف أيًّا ما كانت.

لقد أحس أهل البلدين أنهما في خندق واحد، فعدوهما واحد، وهو يحاول أن يفرق بينهما لكي لا يجتمعا ضده، وكي ينفرد بكل واحد منهما فيصل إلى النتائج التي يريد تحقيقها في أسرع فرصة ووقت.

زعامة واحدة:

وأثبت الطرفان أنهما على مستوى المسؤولية؛ لذا أعلنا خضوعهما معًا لزعيم واحد هو إدريس السنوسي، فصار أول أمير للقطرين بعد انسحاب الأتراك.

وحينما وصل الخبر إلى روما لم يصدق حكامها الخبر، لقد ظنوا أنهم قد نجحوا في نشر الفرقة بين أهل ليبيا، ولكن هاهم يفاجؤون بأن العكس هو الصحيح، وأن أهل ليبيا يجتمعون، وإلا فكيف يمكن لأهل برقة وطرابلس معًا أن يتوحدوا من جديد في الوقت الذي كان فيه موسوليني يتحكم في إيطاليا، وهو يرى أن ليبيا جزء من إيطاليا؛ لذلك أرسل أتباعه إلى إدريس السنوسي يطلبون منه طلبًا غريبًا.

مطلب عجيب:

لقد طلبوا منه بأن لا يقبل بيعة أهل طرابلس له، زيادة على طاعة أهل برقة، بل عليه أن يرفض كل تعاون مع أهل طرابلس وكأنهم ليسوا أبناء بلد واحد، وظن الإيطاليون أن الرجل سوف يقبل كلماتهم حرصاً على هدف شخصي، أو تحقيق مطمع خاص من مال أو متعة زائلة من متع الحياة الدنيا، ولكن الرجل أثبت أنه غير ذلك؛ فرفض، فما كان من الإيطاليين إلا أن طلبوا منه مرة أخرى مطلبًا أشد غرابة، لقد أمروه – وظنوا أنه سوف يراجع نفسه – أن يجمع السلاح من أيدي المجاهدين، فرد عليهم بأن ذلك مستحيل، فالمجاهد المسلم يموت ولا يترك سلاحه من يده، وبدأت نذر الحرب بين الطرفين، ولكن إدريس السنوسي الذي لم يقبل أن يتحكم فيه عدوّه كان يعرف نفسه جيداً.

ظروف خاصة:

لقد كان الرجل يعرف نفسه، إنه يمر بظروف خاصة، فليس من السهل عليه أن يستمر في كفاحه ضد عدوه بنفسه، فلقد كانت صحته تزداد سوءاً، فأيقن أنه في حاجة إلى علاج، كما أنه يريد المساعدة من إخوانه في مصر، وهكذا غادر مقر حكمه في الجبل الأخضر بليبيا سرًّا ذاهبًا إلى مصر في عام (١٩٢٢م).

حاكم جديد:

ولكن مَنْ يتولى قيادة مجاهدي برقة وطرابلس بعد ذهاب إدريس السنوسي إلى مصر، لابد أن يكون هناك رجل قادر على اتخاذ القرار المناسب في الوقت الذي يتحكم فيه رجل مثل موسوليني في إيطاليا، ويطمع في التحكم في الليبيين بأي ثمن وفي الوقت الذي تزداد فيه تضحياتهم، لابد لهم من رجل شديد الحكمة يستطيع متابعة الجهاد، ولقد اختار إدريس السنوسي فأحسن الاختيار، لقد اختار عمر المختار لتبدأ صفحة جديدة من جهاد الشعب الليبي ضد عدوه.

الفصل السادس
صعوبات في طريق عمر المختار

نداء

أشاع الإيطاليون بعد تولية عمر المختار قيادة المجاهدين أنهم قد عقدوا صلحًا معه، ونشروا ذلك في بعض الصحف، وبلغوا به الإذاعات؛ ذلك لأنهم يريدون القضاء على المقاومة الليبية تمامًا، فأشاعوا ما أشاعوا من أن المجاهد عمر المختار الذي قضى عمره منذ أن كان شابًّا في طاعة الله ونشر تعاليم دينه قد تخلى عن الجهاد وتصالح معهم.. إنهم يريدون تشويه صورته أمام الناس الذين أحبوه، واقتربوا منه منذ أن كان معلمًا في الزاوية، وحتى تولى قيادة مجاهدي برقة وطرابلس.

أما عمر المختار فعندما تأكد تمامًا أن الإيطاليين لا يريدون الصلح وإنما هم يتلاعبون بالألفاظ، ويريدون إفساد العلاقة بينه وبين المجاهدين، عندما تأكد من ذلك لم ينتظر، وإنما قدم بنفسه بيانًا إلى المجاهدين يوضح فيه كل شيء، وكما نشر الإيطاليون كلماتهم الكاذبة في الصحف، نشر عمر المختار الآخر بيانه في إحدى الجرائد المصرية، وقد قال فيه:

«أبناء وطني سكان برقة وطرابلس:

في ابتداء سنة (١٣٤٨هـ) وأواسط سنة (١٩٢٩م) خاطبتني الحكومة الإيطالية على لسان ممثلها سعادة المارشال «بادولين» بتوقيف الحرب وتقديم مطالبنا، وتعيين محل - مكان - لمقابلة دولته، فحصل ذلك، وتقابلنا بـ«سيدي رحومة» واتفقنا على عمل هدنة مدتها شهران ليخابر كل منا مراجعه، وفي أثناء المقابلة طلب مني تقديم مطالبنا، وقال لي: إنه مستعد لإرجاع أميرنا السيد محمد إدريس السنوسي إلى برقة إذا كنا نرغب في ذلك.

ومن شروط الهدنة:

١- العفو العام عن كل السياسيين، سواء كانوا في داخل القطر أو خارجه، وإطلاق سراح المسجونين.

٢- سحب كل النقط المستجدة أثناء حرب (١٣٤١هـ) بما في ذلك نقطتا «الجغبوب» و«جالو».

٣- لي الحق في أخذ الزكاة الشرعية من العربان القاطنين - المقيمين - حول النقط الإيطالية بالسواحل.

٤- مدة الهدنة شهران وقابلة للتجديد..».

حكمة وحسن اختيار:

ويكمل عمر المختار كلماته فكان مما جاء في رسالته:

« والآن والهدنة على وشك الانتهاء ولم أتلق ردًّا من الحكومة الإيطالية عن عزمها مخابرة أميرنا السيد محمد إدريس السنوسي رأيت أن أخوض غمار الحرب، وألا أركن إلى أي محادثة أو واسطة.

ولكن لا أدري لماذا تتجنب الحكومة الإيطالية مخابرة الزعيم المذكور مع علمها تمامًا بأن الحل والعقد بيده، فلو كانت حقيقة تريد الصلح لما ترددتْ لحظة في مخابرته.. فليعلم إذاً كل مجاهد أن غرض الحكومة الإيطالية هو بث الفتن والدسائس بيننا لتمزيق كل حق مشروع لنا، كما حدث كثير من هذا خلال الهدنة، ولكن بحمد الله لم توفق إلى شيء من هذا..».

كان الإيطاليون قد حاولوا الوقيعة بين المجاهدين واستمالوا أحدهم إليهم بعد أن أغروه بالمال، وكذلك أرسلوا إلى عمر المختار عارضين عليه مليون فرانك، وبيتًا يليق به، وتعليم أبنائه في مستوى عالٍ مقابل أن يتنازل عن قيادته المجاهدين، أو أن يوهمهم بعكس الحقيقة، فما كان منه إلا أن وقف على الملأ يعلن للجميع الحقيقة، ويفضح أساليب الإيطاليين الذين لا يريدون طلب الصلح من الرجل المناسب محمد إدريس السنوسي، ويريدون

إضعاف حركة المقاومة بأن يرسلوا رجالاً آخرين غير معروفين بجهادهم ورغبتهم في نصرة وطنهم؛ لذلك يرفض عمر المختار كل هذا، ويعلن أنه غير خائف؛ لأنه لا يهاب إلا خالقه لذلك يعلن استمرار المقاومة والجهاد، وبداية مرحلة جديدة من الكفاح.

الإيطاليون يبدؤون الحرب من جديد:

وبالفعل صدق توقع عمر المختار فلم يمض وقت طويل حتى ألقت الطائرات الإيطالية قذائفها على المجاهدين، وعلى عمر المختار وبدأ الكفاح من جديد، وكعهدهم به فقد قام عمر المختار مثل الأسد الذي يدافع عن عرينه رغم خيانة أحد المجاهدين له، وهو الذي كان يتسبب في البلبلة من قبل بنشر قبول عمر المختار للصلح، وكان ذلك الرجل يُسمى محمد رضا السنوسي، وقد استغل الإيطاليون اسمه، وقربه من السنوسيين إذ إنه من عائلتهم ليضغطوا به على عمر المختار والمجاهدين، ولكن الله خيب ظنهم وفشل رجلهم في ذلك، فاضطروا لنفيه إلى إيطاليا كي لا يذكرهم كل فترة بعجزهم..

محاولة أخرى:

ولكن الإيطاليين لم ييأسوا، فبدؤوا باستخدام سلاح جديد إذ إنهم فرقوا

الناس من حول المجاهدين، لقد أخذوا العرب الذين كانوا يقيمون في مكان قريب منهم، وذهبوا بهم إلى مكان آخر بعيد عنهم، حدث ذلك في سبتمبر عام (١٩٣٠م)، وتم نقلهم إلى بلدين: عين الغزالة، ثم العقيلة، وحددوا لهم مكانًا ضيقًا لا يخرجون عنه؛ لأن المكان كان شديد الضيق فلقد أصابت الأعراب الأمراض الشديدة، وأحسوا بالجوع الفظيع، وأحس عمر المختار بالخطر يحيط به فراح يستعد لمرحلة أشد قسوة من كفاحه ضد الظلمة الغزاة.

تعليمات جديدة:

وعزَّ على الإيطاليين أن يعرضوا المال ومتع الحياة على المجاهدين فلا يقبلوا بها؛ ولذلك قررت قيادتهم العليا إرسال حاكم جديد على برقة هو «جرازياني» ونائبًا للمارشال العام «بادوليو» الحاكم العام لكل من برقة وطرابلس، وكانت التعليمات لديه صريحة من حكومة الدوتشي التي كانت تحكم إيطاليا في ذلك الوقت بضرورة القضاء على المقاومة في «برقة» والتفريق بين المجاهدين، ودخول «الكفرة» التي تعد أهم المناطق التي يتجمهرون فيها.

المنع:

وكان عليه أن يمنع وصول السلاح والطعام إلى المجاهدين، فأخذ يتصرف

بقسوة شديدة؛ حتى إنه أنشأ ما عرف في التاريخ بالمحكمة الطائرة وهي التي ينتقل القضاة فيها بالطائرة من مكان إلى آخر كي يكونوا سراعًا في الحكم القاسي الذي يخوف به المجاهدين، وبدأت سياسة المنع تزداد، فكل مَنْ يشتبه أو يشك في كونه من المجاهدين يأخذه إلى السجن، وكذلك حل الزوايا التي كانت تنتشر فيها تعاليم الإسلام، وضيق على المجاهدين حتى لم يعودوا يعسكرون سوى في الجبل الأخضر..

صبر:

أما على الناحية الأخرى فقد صبر عمر المختار وغيّر من سياسته فأصبح يهاجم هجومًا سريعًا يفقد الإيطاليين فيه الكثير من قواتهم ثم يعود مسرعًا، ولكن الإيطاليين جن جنونهم فاستولوا على منطقة الفايدية بأجمعها، وقد كانت إحدى المناطق المهمة بالنسبة للمجاهدين، وأخذوا من الأهالي بالقوة (٣١٧٥) بندقية و (٦٠٠٠٠) خرطوشة.

عمر المختار ينقل دائرة عملياته:

واضطر عمر المختار إلى نقل دائرة عملياته إلى الناحية الشرقية في «الدفنا» فهي قريبة من الحدود المصرية، وبذلك يستطيع أن يرسل المواشي إلى الأسواق من هناك، ويأخذ ما يريد من مؤن بدلاً منها، فما كان من

« جرازياني » إلا أن أمر بإقامة أسلاك شائكة على طول تلك الحدود من بردي سليمان إلى ما بعد « الجغبوب »، بمسافة ثلاثمائة كيلو متر، وقد انتهى من نشر الأسلاك في ربيع الأول عام (١٣٥٠هـ)، فأصبح المجاهدون مقطعوين عن العالم، وخروجهم من بين هذه الأسلاك أصبح صعباً جداً.

الفصل السابع

النهاية

اشتداد المعارك:

واشتدت المعارك بطريقة لم تحدث من قبل، فالإيطاليون ينفقون المال الكثير، ويحيطون بالمجاهدين من كل اتجاه، وعمر المختار يبذل قصارى جهده كي يعلمهم درسًا واحداً أنهم مهما فعلوا فلن يوقفوا مقاومته إلا أن يشاء الله تعالى أمراً، فهاجم «عين الغزالة» واستولى على عدد عظيم من الجمال، فاضطر «جرازياني» – وقد أعماه الغضب – إلى محاصرة أهل البلدة أيضًا بالأسلاك الشائكة وإلى استدعاء قوات نظامية حاصرت المكان كله، بل ونقل قوات غير نظامية ليبية أخرى من مكان إلى آخر، واشتبك معهم في معركة «كرسه» التي استشهد فيها مجاهد عظيم هو الفضيل بوعم، فحزن عليه عمر المختار حزنًا شديداً.

الحصار:

وبعدها شدد الإيطاليون عملياتهم العسكرية في منطقة الجبل الأخضر حيث يتجمعون، وفي أكتوبر (١٩٣٠م) اشتبك المجاهدون معهم في معركة غير متكافئة الطرفين كانت نتيجتها العثور على جواد عمر المختار مقتولاً

وكذلك نظاراته، فأصدر جرازياني بنفسه منشوراً ضمنه هذا الحادث، وقال فيه:

«لقد أخذنا اليوم نظارات عمر المختار، وغداً نأتي برأسه»!!.

الزحف على الكفرة:

وبعد استعدادات عظيمة بدأ زَحْفُ الإيطاليين على الكفرة كما يقول الإيطاليون في مكان تجمع المجاهدين الأكبر، وبينما هم في الطريق بلغهم تجمع المجاهدين في واحة «الهواري» فاشتبكوا معهم في معركة استمرت ثلاث ساعات، وقد قاتل فيها المجاهدون بشراسة حتى كادوا يفنون عن آخرهم؛ لأن عدوّهم قد استخدم الطائرات ضدهم.

وفي (٢٤) من يناير (١٩٣١م) وصل «بادوليو» المارشال بنفسه إلى المسلمين ورفع علم الإيطاليين على زاوية التاج، ثم أخذت قواته تطاردهم، وعادوا بخمسين أسيراً من المجاهدين قتلوا منهم اثني عشر رجلاً على الفور، فكان ذلك إيذانًا بانتهاء المقاومة في برقة كما كان سقوط فزان نهاية المقاومة في طرابلس، وصار الموقف صعبًا جدًا بالنسبة لعمر المختار، فالحدود المصرية قد أغلقت أمامه إغلاقًا تامًّا، ولايستطيع أحد أن يساعده في الجبل الأخضر.. فماذا يفعل.. وهو البطل الذي قضى عمره كله في الكفاح،

لقد أصر على استمرار المقاومة حتى حدث ما لم يكن في حسبانه..

قدر إلهي..

ولكن الله تعالى كان قد قدر أمراً، فعمر المختار كان قد اعتاد أن ينتقل مرة سنوياً من مركز إقامته إلى المراكز الأخرى التي يقيم فيها إخوانه المجاهدون، خاصة بعد أن ضيق الإيطاليون الخناق عليهم كي يطمئن على أحوالهم، ويعرف ما يواجههم من عقبات أو مشاكل فيحلها،، وكان يأخذ معه قوة من الطوارئ كافية لحمايته، ولكنه في هذا العام نظراً لضراوة المعارك التي خاضتها قواته مع إيطاليا اقتصر على مائة رجل لحمايته فقط، وبعدما اطمأن على حال إخوانه المجاهدين اقتصر في العودة على أربعين فقط.

وادي الجريب:

وكان لابد له في الطريق أن يمر على وادٍ صعب السير فيه، لكثرة غاباته، وعلمت إيطاليا بذلك عن طريق جواسيسها المنتشرين، فأمرت بمحاصرة الوادي من كل مكان بعدما جمعت ما لديها من قوة قريبة وبعيدة، فما شعر عمر المختار ومن معه إلا وهم في قلب العدو، فما كان منه إلا أن أمر أتباعه بالهجوم على العدو القريب منهم من الناحية القبلية، واستمر القتال بينهما لمدة يومين على الرغم من عدد المجاهدين، وقلة سلاحهم وكثرة عدد وسلاح

الإيطاليين، إلا أن المجاهدين استطاعوا فتح ثغرة في صفوف عدوهم نفذوا منها خارجين من الوادي إلى غربي «سلطنة» وهناك فاجأتهم قوة إيطالية أخرى، فدخلوا معها في معركة جديدة، استشهد فيها جميع الذين بقوا مع عمر المختار، وكذلك قتل الحصان الذي كان يركبه، ووقع فوقه، فتمكن البطل المجاهد من تخليص نفسه من تحته، ولم يستسلم، بل ظل يقاتل الإيطاليين وحده، حتى جُرِحَ في يده، ولم يستطع المقاومة، فأخذ أسيراً، ليطير الخبر إلى أعلى قيادات إيطاليا فتفرح به، أما الرجل المجاهد الذي بلغ من العمر ثمانية وستين عاماً فقد قال:

كلمات عظيمة:

«إنَّ ما حدث تنفيذٌ لإرادة الله، وإنه وقد أصبح الآن أسيراً بأيدي الحكومة الإيطالية فالله سبحانه وتعالى وحده يتولى أمره، وأما أنتم فلكم الآن وقد أخذتموني أن تفعلوا بي ما تشاؤون، وليكن معلوماً أني ما كنتُ في يوم من الأيام لأسلم لكم طوعاً».

استمرار النضال:

وكذلك أكد عمر المختار في حديث آخر أن القتال في ليبيا سيظل؛ لأنه رتب أموره على استمراره وعدم التسليم للعدو مهما حدث، أما جرازياني

القائد العام لبرقة فقد كان يقضي إجازته في روما، فوصله الخبر مساء يوم (١٢) من سبتمبر (١٩٣١م)، وهو في القطار الذاهب إلى باريس، فلم يواصل رحلته، بل ركب طائرة أوصلته إلى باريس في اليوم التالي مباشرة، ودعا المحكمة الطائرة التي اشتهرت بأحكامها الشديدة المخالفة للعدل والإنسانية كي تجتمع بعد يومين فقط من وصوله إلى طرابلس أي في (١٥) من سبتمبر، لقد عاد بسرعة لأنه يريد الشماتة بعمر المختار، وهو الرجل الذي لبس قناع النفاق لموسوليني حينما حكم إيطاليا واقتنع بفكره ربما أكثر منه، مع أنه كان مع قادة الجيش الإيطالي قبله، طلب جرازياني على الفور أن يرى عمر المختار، وطلب من مترجم أن ينقل له كلماته فكان مما دار بينهما..

حوار خالد:

قال جرازياني: لماذا حاربت الحكومة الإيطالية هذه الحروب الشديدة؟

فأجاب عمر المختار: لأن ديني يأمرني بذلك.

وفاجأ جرازياني عمرالمختار بقوله: كم من الوقت يمكنك بما لك من نفوذ وصولة أن تخضع الثوار في الجبل؟.

فقال عمر المختار في تحد: أبداً.. أبداً.. إني كأسير لا أستطيع فعل شيء، وفضلاً عن ذلك فقد أقسمنا جميعًا أن نموت واحداً بعد واحد، ولا

نسلم أنفسنا بتاتًا، ومن المعروف تمامًا أني لم أسلم نفسي إليكم.

إن جرازياني يظن أن باستطاعته أن يجعل عمر المختار ينهي ثورة الليبيين ربما لكي يخفف عنه الحكم، لكنه لم يعلم أن الرجل الذي قدّم مقاومته الطويلة للإيطاليين بأن دينه هو الذي يأمره بذلك لن يستجيب، بل وسوف يعلمه درسًا في الشجاعة مهما اشتدت الظروف من حوله، لقد رفض بكبرياء المؤمن أن يقوم بالدور الذي خيل إلى جرازياني أن عمر المختار قد يقوم به، فلم يملك جرازياني إلا أن يقول:

لا شك أنك كنتَ طوال حياتك رجلاً شجاعًا، وإني لأرجو أن تكون شجاعًا مهما حدث لك أو نزل بك.

ويقول جرازياني: إن عمر المختار قد فهم هذه الكلمات أن الحكم سوف يصدر بإعدامه فلم يضطرب، وإنما استمر على ثبات المؤمن.

وفي مساء ذلك اليوم عقدت المحاكمة، وكان الإيطاليون قد أعدوا المشنقة له قبلها بيوم، وهو ما يتنافى مع أبسط قواعد العدالة، إذ كيف تعقد المحكمة وقد صدر الحكم بالإعدام حين إعداد المشنقة، وهي الطريقة التي أعدم بها عمر المختار في أغلب المراجع.

ويصف أحد المؤرخين تلك المحكمة الظالمة بقوله:

جاء الطليان بالسيد عمر المختار إلى قاعة الجلسة مكبلاً بالحديد، وحوله الحراس من كل جانب، وتليت الاتهامات ولم يسمح لمحاميه بالدفاع عنه، وصدر عليه الحكم بالإعدام، وأحضر الطليان أحد المترجمين الرسميين واسمه «نصرت هرسس»، فلما اختتمت الجلسة ظهر الارتباك والتأثر على المترجم حتى طلب رئيس الجلسة غيره..

لقد كان الرجل عظيمًا حتى في وقائع استشهاده، ولقد هز حتى المترجم الإيطالي، فكاد أن يبكي لولا أن غيره رئيس الجلسة بآخر، ولقد تأثر كل من كانوا بالمحكمة حينما نطق عمر المختار بكلمات بعد صدور الحكم، وطلب رئيس المحكمة ترجمتها، فكانت:

﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾.

النهاية:

وفي اليوم التالي مباشرة تم تنفيذ الحكم في البطل العظيم الذي كان رجلاً مؤمنًا حتى حينما التف حبل المشنقة حول رقبته، وقيل: إنه بعد تنفيذ الحكم في المرة الأولى وبعدما نطق عمر المختار بالشهادتين، وجدوه حيًّا، فأعيد تنفيذ الحكم مرة أخرى، وتم دفنه بسرعة خوفًا من غضب الشعب الليبي، ومن الغضب الذي انتشر في العالم الإسلامي كله.

وتم للإيطاليين ما أرادوا، ولكن الله كان لهم بالمرصاد، وهو الذي يعطي المهلة، ولكنه لا يهمل عز وجل، فلم تمض إلا سنوات حتى جاءت الحرب العالمية الثانية عام (١٩٣٩م) التي دفع الإيطاليون فيها ثمنًا غاليًا، فكانت خاتمة خير لليبيا، إذ تم طرد الإيطاليين عن أرضهم، وليشهدوا عدالة العناية الإلهية التي اقتصت للمجاهدين الليبيين الذين استشهدوا في سبيل دينهم، وتحرير بلدهم، ولعمر المختار البطل العظيم الذي سيظل حاضرًا في تاريخ أبطال المسلمين حتى يرث الله الأرض ومَنْ عليها... رحمه الله وألحقنا به وبالصالحين.

المحتويات

الموضوع **الصفحة**

الموضوع	الصفحة
الإسلام والجهاد	٥
نشأة بطل	٧
ضد قوى الشر	١٣
تسليم واستشارة	٢١
مرحلة مهمة من الكفاح	٢٩
صعوبات في طريق عمر المختار	٣٧
النهاية	٤٥

العبيكان
obeikan
Printing & Packaging